

كلية الاداب
قسم التاريخ
محاضرات مادة (تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الراشدي و الاموي)
م.م. وداد محمد عبد الله
المرحلة الثانية (الصباحية و المسائية)
2026 – 2025
المحاضرة (2)

نظام الخلافة بين النص الإلهي والتعيين البشري

الخلافة في التاريخ الإسلامي ليست مسألة إدارية فحسب، وإنما قضية أتصلت بجوهر الدين. فإذا كانت النبوة اصطفاً إلهياً، فهل يمكن أن يُترك أمر من يخلف النبي لاجتهاد الناس وحدهم؟ أليس من البديهي أن من يخلف الرسول يجب أن يكون قادرًا على تمثيل الرسالة بنفس الدرجة من الطهارة والعدالة والعلم؟ هذه الأسئلة كانت وما زالت أساس النقاش في موضوع الخلافة، ومن هنا برز اسم الإمام عليّ منذ بزوغ فجر الإسلام مقرونًا بالرسالة، حتى إذا رحل النبي ﷺ أصبح شخصه المحور الذي دارت حوله مناقشات الخلافة، بما يملكه من طهارة وعلم وعدالة جعلته أقرب المرشحين لتمثيل الرسالة بعد صاحبها. "إنذار العشيرة

عندما نزل قوله تعالى: {وأندر عشيرتك الأقربين جمع النبي ﷺ بني هاشم وأعلن أمامهم رسالته وطلب منهم نصرته ومؤازرته فتردد الحاضرون في ذلك، غير ان علي بن ابي طالب رغم صغر سنه اعلن نصرته صراحة فقال: "أنا أوأزرك يا رسول الله" عندها قال النبي: "هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم" قد يُقال إن عليًا كان صغيرًا، ولكن أليس في ذلك دلالة على أن الاختيار لم يكن سنًا أو تجربة دنيوية، بل اصطفاً روحياً؟ وهل يُعقل أن يعلن النبي مثل هذا الموقف أمام قومه لو لم يكن وحياً مؤيدًا من الله؟ هذه اللحظة المبكرة تمثل أول تصريح عليّ بأن عليًا سيكون الامتداد الطبيعي للرسالة.

مبيت علي على فراش النبي

في ليلة الهجرة الكبرى، حين قرر المشركون اغتيال النبي ﷺ، طلب النبي من علي (عليهم السلام) أن يبيت في فراشه موقف قد يبدو بطوليًا فحسب، لكن دلالاته أعمق: لقد سلم النبي حياته في تلك اللحظة بين يدي علي. فلو لم يكن علي مؤهلًا لحماية الرسالة ومصيرها، فهل كان النبي ليعرضه لذلك الدور هذا الحدث يفتح تساؤلًا مهمًا: هل كان المبيت مجرد عمل شجاعة، أم إعلانًا عمليًا بأن عليًا هو المؤمن على ما بعد النبوة؟ إن القبول بالموت في سبيل حماية النبي، وتكليف النبي له بذلك، يكشف أن عليًا كان شريكًا في مسار الرسالة لا مجرد تابع.

التفويض باداء الديون والأمانات

قبيل خروجه من مكة، فوّض النبي عليًا بقضاء ديونه ورد أماناته قد يراه البعض شأنًا إداريًا، لكن الحقيقة أنه يحمل معنى سياسيًا وروحياً. الأمانات ليست مجرد أموال، بل هي رمز الثقة الاجتماعية والدينية. فالنبي الذي بُعث ليؤدي الأمانة يجعل عليًا امتداده في هذا المقام. فهل يمكن أن يكون هذا محض مصادفة؟ ألا يدل على أن عليًا هو القائم مقام النبي في شؤونه الخاصة والعامة تحطيم الأصنام (سنة 8 هـ)

في السنة الثامنة للهجرة، عند فتح مكة، أمر النبي ﷺ عليًا أن يعلو كتفه الشريف ليصل إلى سقف الكعبة ويُسقط الأصنام التي عجز غيره عن تحطيمها. فكان عليّ هو الذي أطاح بأوثان قريش التي بقيت شامخة حتى ذلك الحين فأعلن عمليًا نهاية عهد الوثنية. وهذا التكليف لم يكن مجرد اختيار عابر، بل كان دلالة على أن حامل لواء التوحيد بعد النبي هو عليّ، لأنه الأقدر على مواصلة رسالته.

مواطن الاستخلاف أثناء الغزوات

لم يتوقف الأمر عند الحوادث الفردية، بل كرر النبي ﷺ استخلاف علي على المدينة في أكثر من غزوة. ففي غزوة تبوك مثلاً، ترك النبي علياً خليفة له، وعندما عبر الامام عن رغبته في مرافقة النبي: "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعد" هذه العبارة ليست مجرد تشبيهه عابر، بل نص واضح يقيم الموازنة بين نبوة موسى وخلافة هارون (عليهما السلام)، وبين نبوة محمد وخلافة علي (عليهما السلام).
أليس في هذا النص تحديد قاطع لوراثة علي للسلطة بعد النبي وإذا كان هذا النص لا يعني الاستخلاف، فماذا يعني إذن

التبليغ بالبراءة

في السنة التاسعة للهجرة، وبعد أن نزل صدر سورة التوبة (براءة)، بعث النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقراها على الناس، ثم جاءه الوحي بأن لا يبلغ عنه إلا هو أو رجل من أهل بيته. عندها أرسل النبي علياً عليه السلام ليلحق بأبي بكر ويأخذ منه المهمة، فقرأ عليّ على المشركين آيات البراءة في موسم الحج، وقد كان هذا الموقف شاهداً واضحاً على أن تبليغ رسالة النبي في لحظات مفصلية لا يقوم به إلا من كان شريكاً في طهارته ومكانته.

النص الرسمي يوم الغدير

"بلغت النصوص ذروتها يوم الغدير في حجة الوداع، حين اجتمع عشرات الآلاف من المسلمين في صحراء قاحلة، وقد نزل قوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته} فأوقفهم النبي ﷺ في مشهد مهيب واخذ بيد علي ورفع حتى رأى ذلك جميع من حضر فقال «من كنت مولاه فهذا علي مولاه....» فهل كان جمع ذلك الحشد الكبير في وقت شديد الحر لمجرد إعلان محبة شخصية؟ أم أنه أمر إلهي ذو بعد سياسي وتشريعي؟ لقد فهم كثير من الصحابة أن الأمر نص صريح على خلافة علي، حتى أن عمر بن الخطاب هنأه قائلاً: «بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة» فإذا كان النص بهذا الوضوح، فكيف جرى تجاوزه بعد أسابيع قليلة؟

"إن هذه الشواهد المتعددة. من إنذار العشيرة، ومبيت علي على فراش النبي ليلة الهجرة، وتفويضه برّد الأمانات، واختصاصه بتحطيم الأصنام، وتكرار استخلافه في الغزوات، وتكليفه بتبليغ براءة، وصولاً إلى الإعلان الرسمي يوم الغدير. ليست أحداثاً عابرة في السيرة، بل حلقات مترابطة شكّلت مساراً واحداً. فقد أراد النبي ﷺ أن يبين لأمته، بطرق شتى وعلمية، أنّ علياً عليه السلام هو الامتداد الطبيعي لرسالته، والأجدر بحمل لواء الإسلام من بعده. إنها نصوص ومواقف جرت أمام أعين المسلمين في محطات مصيرية، لتؤكد بما لا يدع مجالاً للبس أنّ علي بن أبي طالب لم يكن مجرد صحابي مميز، بل كان وصياً معلناً وخليفةً مهياً ليوصل الطريق بعد خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله."

وفاة الرسول ﷺ: والانشغال بالتجهيز والدفن

في السنة الحادية عشرة للهجرة، رحل النبي (ص) عن الدنيا. انشغل أهل بيته، وفي مقدمتهم علي (ع) وبنو هاشم، بتجهيزه ودفنه كان الحدث جليلاً، حتى إن الجميع غُمر بالحزن والارتباك. وفي تلك اللحظات الحرجة، لم يخطر ببال بني هاشم أن مسألة الخلافة يمكن أن تُطرح بينما جسد الرسول لم يوارِ الثرى بعد، أليس من الطبيعي أن تكون الأولوية لوداع النبي؟ ولكن في السياسة، الحسابات تختلف.

اجتماع السقيفة: ظروفه وأبعاده

في غياب بنو هاشم وبعض كبار الصحابة علي اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبحثون من يخلف الرسول. كان رأيهم أن الخلافة حقهم، لأنهم أووا ونصروا. لكن سرعان ما وصل بعض المهاجرين، فاحتدم النقاش: هل تكون الخلافة في الأنصار أم في قريش؟

جاء الجواب سريعاً بأن العرب لن تقبل إلا بقرشي. وهنا طُرح اسم أبي بكر (رض) تمّت البيعة على عجل، في وقت كان جسد النبي لم يدفن بعد السؤال الذي يفرض نفسه: كيف جرى تجاوز النصوص الواضحة التي

نصت على علي لصالح تعيين تمليه الحاجة السياسية والقبلية؟ أكانت الخلافة شأنًا دنيويًا بحتًا، أم أنها قضية دينية تستوجب الالتزام بالنص؟
 غياب بني هاشم وانقسام المسلمين
 بينما كان الأنصار والمهاجرون يتنازعون في السقيفة، كان الأمام علي وبنو هاشم مشغولين بتجهيز النبي ودفنه. وهكذا وجدوا أنفسهم خارج دائرة القرار السياسي الأول، و بعد تمام البيعة، وجد المسلمون أنفسهم منقسمين:

- فريق تمسك بالنصوص التي نصت على علي (ع) ورأى أن ما حدث في السقيفة خالف الأمر الإلهي.
- فريق آخر برر البيعة بأنها ضرورة سياسية لتوحيد الأمة ومنع الانقسام.
- وهناك من ظل مترددًا، لا يقطع برأي.

ألم يكن هذا الانقسام أول بذرة للشقاق الذي عرفه المسلمون فيما بعد؟
 النص والتعيين: امتحان الأمة الأول

يمكن القول إن ما حدث بعد وفاة النبي (ص) كان أول امتحان للأمة في التعامل مع النصوص. هل النصوص أوامر ملزمة لا تقبل الاجتهاد؟ أم أنها إرشادات عامة يمكن تجاوزها إذا اقتضت المصلحة؟ لقد قرر جمهور الصحابة أن الخلافة شأن دنيوي يمكن أن يُدار بالاجتهاد، بينما رأى آخرون أن النصوص واجبة الاتباع. وهكذا وُلد الانقسام بين مدرستين: مدرسة النص الإلهي ومدرسة التعيين البشري. ومن هذا الانقسام ستفرع معظم الصراعات الفكرية والسياسية اللاحقة.

إن الخلافة بعد الرسول لم تكن مجرد مسألة سياسية، بل امتحانًا لفهم النصوص الدينية وتطبيقها. لقد نص النبي في مواقف عديدة على ولاية علي، لكن الظروف السياسية والاجتماعية قادت إلى تعيين غيره. فهل كان تجاوز النصوص بداية لأزمة الشرعية في التاريخ الإسلامي؟ وهل لو التزم المسلمون بالنص على علي لكان تاريخ الأمة أقل دموية؟ أم أن طبيعة البشر وصراعات المصالح كانت ستؤدي إلى الانقسام مهما كان الخليفة؟

تبقى هذه الأسئلة مفتوحة، لنفهم كيف تشكلت أولى اللحظات السياسية في تاريخ الإسلام، وكيف كان النص الإلهي في مواجهة التعيين البشري.

الأسس التي بُني عليها النظام السياسي

حين توفي الرسول ﷺ سنة 11هـ، وجد المسلمون أنفسهم أمام سؤال خطير: من يقود الأمة بعد النبي لقد كانت الرسالة الإلهية واضحة في أصول التشريع والعبادة، لكن وضوحها لا يعني أن الأمة أصبحت مكتفية بنفسها؛ فهي بحاجة إلى من يواصل البيان والتوضيح والتطبيق العملي للأحكام على مستوى النبي نفسه، وإلا تعطلت الهداية في تفاصيلها.

وهنا يطرح سؤال جوهري: هل كان الذين أسسوا الخلافة السياسية بعد وفاة الرسول مؤهلين علميًا وروحياً للقيام بهذا الدور؟ ثم هل ترك النبي مسألة الإدارة والسياسة بلا أي توجيه، أم أن النصوص التي وردت في حق الإمام علي كانت تمثل أساسًا كافيًا يهدي الأمة في اختيار قائدها؟ هذه الإشكالية بالذات كانت جذر النقاش الأول الذي وُلد النظام السياسي الإسلامي.

عند النظر في تجربة السقيفة، نجد أن النظام السياسي الذي نشأ لم يُؤسس من فراغ، بل استند إلى عدة أسس جدلية منها:

1. القبيلة والشرف القرشي:

كان المسلمون من المهاجرين يرون أن القيادة لا بد أن تكون في قريش، لأن النبي منها، ولأن العرب لن تخضع إلا لسلطانها. وقد احتج المهاجرون في السقيفة على الأنصار بقولهم: نحن أولى برسول الله حيًا وميتًا والسؤال هنا: هل كانت هذه الحجة مستندة إلى نص ديني، أم أنها إحياء للتقاليد القبلية في ثوب جديد؟

أما بنو هاشم، فقد احتجوا على قريش بنفس المنطق: نحن أولى برسول الله حياً وميتاً لأننا عشيرته الأقرب لكن حجتهم لم تلقَ قبولاً، إذ غلبت الرؤية القرشية بحكم الواقع الاجتماعي الذي كان يمنح قريش سلطة معنوية على البقية

وهنا يبرز جدل خطير: إذا كانت القرشية هي الأساس، فهل يعني ذلك حصر القيادة في نسب معين دون اعتبار للعلم والعدل والتقوى؟ ولماذا استبعد بنو هاشم اليسوا من قريش المصلحة ووحدة الجماعة: .2

الحجة الثانية التي رُفعت هي ضرورة تعيين قائد سريعاً قبل أن ينقسم المسلمون. قيل يومها: لا يمكن أن يمضي يوم على الأمة بلا أمير لكن هل كان الاستعجال مبرراً لتجاوز النصوص التي أوصى بها النبي؟ أم أن وحدة الجماعة مقدمة على أي نص؟

هذا المبدأ ظل حاضراً في الفكر السياسي الإسلامي: أيهما أولى، النص الإلهي أم المصالح ومن زاوية أخرى، جعل هذا المبدأ السياسة مرتبطة بحماية الدولة واستمرارها أكثر من ارتباطها بالنص وإقامة الحق المجرد. وهو ما مهّد لاحقاً لانتشار المقولة الشهيرة: ستون سنة من إمام جائر خير من ليلة بلا إمام الشورى والاجتهاد: .3

ما جرى في السقيفة اعتُبر نوعاً من الشورى، لكن الشورى اقتصر على نفر محدود من المهاجرين والأنصار فهل كانت هذه شورى حقيقية تعكس رأي الأمة، أم مشاورة ضيقة فرضها الظرف الطارئ ثم إن القول بالشورى فتح باب الاجتهاد السياسي: أي أن المسلمين لهم أن يقرروا مصيرهم بالتصويت أو النقاش، سواء في غياب النص أو في وجوده. فهل يعد هذا اجتهاداً مشروعاً يحمي وحدة الأمة، أم التفافاً على الأمر الإلهي البيعة كآلية للشرعية: .4

أعلن أن السلطة تثبت بالبيعة. لكن كيف أخذت البيعة يومها؟ أكانت حرة أم بيعة اضطرار وهل ألزم بها جميع المسلمين، أم أنها كانت خاصة بمن حضر؟ هذه الأسئلة تجعلنا نفكر: هل البيعة كانت مجرد وسيلة لتثبيت الواقع أم كانت عقدًا اجتماعيًا حقيقياً يعكس إرادة الجماعة والبيعة نفسها أثارت جدلاً لاحقاً: إذا بايع عدد من الناس شخصاً ما، هل تصبح البيعة ملزمة للجميع؟ وهل البيعة تُبطل النص، أم أنها لا تصح إلا في ظل النص أثر النظام السياسي على المسلمين في تلك المرحلة

ان أثر النظام السياسي الذي نشأ بعد سقيفة بني ساعدة بدأ يتجلى في مرحلة دقيقة من تاريخ المسلمين، إذ أسهم في بروز بدايات الانقسام داخل المجتمع، مع إبراز أهمية مواقف الأفراد المؤثرة، مثل موقف الإمام علي عليه السلام الذي آثر ضبط النفس وحماية وحدة الأمة، وموقف أبي سفيان الذي حاول استغلال الأوضاع لتعزيز مصالحه الخاصة، ما أبرز التحديات التي تواجه الحفاظ على وحدة المسلمين. ومن آثار هذا النظام أيضاً تأسيس مبدأ الموازنة بين الاجتهاد والرأي والنص الشرعي في صناعة القرار، الأمر الذي أتاح ظهور مدارس فكرية وكلامية تنوعت في تحليل النصوص وتفسيرها، وتعمقت في مناقشة العلاقة بين النص الشرعي والاجتهاد. كما تبين أثر النظام في إعطاء الأولوية أحياناً للمصلحة الدنيوية عند اتخاذ القرارات السياسية، سواء في توسيع النفوذ، أو التعيينات الإدارية، أو إدارة الشؤون العامة، مما أظهر التوتر بين الاعتبارات الدنيوية والمبادئ الدينية في حياة المسلمين اليومية، وأسهم في رسم معالم السياسة الإسلامية العامة.

=====